القصة في شعر أحمد رفيق المهدوي (غيث الصغير) أنموذجاً

(دراسة وصفية تحليلية)

د.محمد نوري عبدالسلام بن قمو(*)

المقدمة :

المتتبع للحياة الأدبية في ليبيا يجدها مليئة بالتجارب المعبرة عن حياة هذا الشعب، اجتماعياً وفكرياً وسياسياً وجهادياً، فهذه الأمور جميعها أثرت تأثيراً عميقاً في أدباء ليبيا، ليعبروا عَمَّا تحويه خواطرهم من أمور مرت بهم في حياتهم، ولعل اختيار الشاعر أحمد رفيق من بين هؤلاء الذين أسهموا في هذا المجال، وخصوصاً أن يعبر بحرقه في قصيدة قصصية تمثل واقعاً أثَّر في حياته، ولهذا نستهل الحديث بقول خليفة التليسي في حديثه عن شخصية رفيق حيث قال:

"ولا شك في أن الأصول النفسية في هذه الحادثة "غيث الصغير" ضاربة في الواقع رغم أنها من نسيج خيال الشاعر، ذلك لأن القاعدة النفسية التي قامت عليها هذه القصيدة موجودة ماثلة في كل ألوان العسف والجور والطغيان الذي تعرضت له بلادنا في العهد الإيطالي البغيض ... إن الفكرة التي تسيطر على القصيدة هي فكرة الانتقام، وقد اصطنع الشاعر شخصية الطفل لتصويرها وتجسيمها، وكانت هذه الفكرة تعبر عن النفسية الليبية التي ما انفكت تتطلع إلى اليوم الذي تتخلص فيه من المستعمرين".[1]

وباعتبار أن القصة تمثل لوناً شعرياً هو "الشعر القصصي" فهو في الفنون الأدبية قصيدة سردية، بطولية، خارقة للمألوف، مادتها الحروب المتصلة والأبطال الذين يخوضونها، وتستند إلى أحداث تمتزج فيها الحقيقة بالخيال، والواقع بالأساطير، وتنسج منها قصة متصلة الحلقات، تُرضي الشعوب الناشئة، فتستثير فيها مختلف العواطف من حب وحقد ورهبة واعتزاز، وهي عواطف جماعية تختفي فيها ذات الشاعر إلى حد كبير.

فالشعر العربي في مجمله حديث العهد بالقصة، وهي مظهر من مظاهر التجديد التي طرأت عليه، فقد برزت في الشعر الحديث عند بعض الشعراء مثل خليل مطران، حيث تفوق هذا الشاعر في هذا اللون الأدبي وامتاز بقدرة رائعة في هذا الميدان، وقد ظهر بعده شعراء كثيرون عرفت لهم مشاركة واضحة في القصة الشعرية، وقد يكون رفيق متأثراً في اتجاهه القصصي بهذه الفئة من الشعراء، ومتأثراً أيضاً بحركة التجديد الشعري.[2]

(*) عضو هيئة تدريس بكلية التربية، الجامعة الأسمرية الإسلامية، قسم اللغة العربية، التخصص : أدب حديث

(1) رفيق شاعر الوطن، خليفة محمد التليسي، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ط2، 1971، ص 171، 172.

(2) ينظر السابق نفسه، ص 170.

والمتتبع لشعر رفيق "يستطيع أن يلاحظ أنه كان يملك القدرة على معالجة القصة الشعرية، ولو وقف رفيق عند هذا الجانب من شاعريته واهتم به لقدَّم لنا نماذج مختلفة من الشعر القصصي".[1]

فالقصيدة القصصية "الملحمة" تتضمن في جذورها بذرة تاريخية حقيقية، يُضيف إليها الشعراء ما يحلو لهم من أحداث وبطولات ...، وشخصية رئيسية تدفع الأحداث شيئاً فشيئاً حتى النهاية، وهذه الشخصية تتجاوز نطاق البشر العاديين، بحيث تتحول إلى رمز بطولي خارق، يعشقه الناس ويصبح بطلاً قومياً.[2]

فالشعر والقصة إذن فنان يسهل تداخل أحدهما في الآخر على أن الشعر إذا دخل عالم القص فهو يدخله في إطار قوانينه، وأما القصة فهي تدخل عالم الشعر في إطار حرفيتها.[3]

ويتابع خليفة التليسي حديثه بأن هناك قواعد تتفق فيها القصة الشعرية مع القصة النثرية منها : "أن تكون وحدة فنية كاملة تخدم غرضاً معيناً، وأن يتوفر فيها العنصر الذي يتيح للقارئ شعور المشاركة، والاندماج مع أبطالها، والتفاعل مع مضمونها وأحداثها، وأن تتوفر في الشاعر القدرة على تصوير الشخصية وتطويرها ونموها والإحاطة بأبعادها النفسية، وأن تكون النماذج التي يصورها الشاعر نماذج طبيعية، بمعنى ألاَّ تكون غريبة ينكرها الواقع الإنساني".[4]

على ضوء هذه القواعد يمكننا أن ندرس قصيدة أحمد رفيق المهدوي بعنوان – غيث الصغير- ففي الآونة التي أخذت بلب الشاعر وألهمته قصته عن الصغير غيث أحد نزلاء الملاجئ في برقة كانت إيطاليا تريد القضاء على المقاومة الوطنية بأية طريقة ولو كانت مخزية أو منافية للإنسانية ومبادئ حق الإنسان.[5]

وفي احتوائي لهذا الموضوع اتبعت الآتي :

منهجية البحث : اعتمدت في هذا البحث المنهج البنيوي وهو منهج حديث يدرس النصوص الأدبية من داخلها، فهي دراسة وصفية تحليلية تهدف إلى توضيح أصالة الشعب الليبي وتاريخه المجيد في التضحية والانتقام من المستعمر البغيض، فقسمت هذا البحث على مقدمة وخاتمة، ورتبت المطالب على النحو التالي :

1. جذور القصة في المجتمع الليبي.
2. توظيف الجانب الرمزي في قصة غيث الصغير.
3. عناصر السرد.
4. القضايا التي تناولتها القصة.

---

(1) السابق نفسه، ص 171.

(2) ينظر سامي يوسف أبوزيد، تذوق النص الأدبي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط1، 2012.

(3) ينظر نبيلة إبراهيم، فن القص في النظرية والتطبيق، مكتبة غريب، دار فياء للطباعة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 238.

(4) رفيق شاعر الوطن، مصدر سابق، ص 170.

(5) عبد ربه الغنّاي، رفيق في الميزان، منشورات مكتبة الأندلس، البركة، بنغازي، ليبيا، ط1، 1967م، ص 20.

فرضية البحث : جلّ الشعراء لم يهتموا بالجانب القصصي في الشعر ليغرسوا ارثاً حضارياً للأجيال القادمة ولمعرفة مدى قدرة الشاعر الليبي على تصور الأحداث التاريخية التي مرت بشعبه وخصوصاً الجانب الجهادي.

هدف البحث : الدعوة إلى قراءة متروية لقصة غيث الصغير بجميع فصولها لتذكر أبناء الوطن بالواقع المرير الذي عاشه الشعب الليبي في كفاحه ضد المستعمر الإيطالي، وغرس في نفوسهم الكره للاستعمار وترسيخ مبدأ الوطن لديهم.

1. جذور القصة في المجتمع الليبي :

لعل التأثير القوي للقصة في ليبيا، يبدأ بما فرضه القهر الاستعماري وأساليبه في إزالة كل ما من شأنه أن يكون تعبيرًا داعيًا بالإنسان لغرض ستار العزلة والإرهاب، ومع شعر المقاومة ضد الغزو الإيطالي، كانت الحكايات تروى وتسجل عن نضال الشعب البطولي، وعن قصص الاستشهاد في سبيل الله والوطن، فكانت أشجان الأدباء واحتراقات قلوبهم تخرج - بالإضافة إلى الشعر والمقالة الأدبية - في قالب خواطر قصصية ترصد بعض الملامح الشعبية والاجتماعية السائدة والمتأثرة بها، وتحكي عن مكبوث النفس وهي تعاني القهر ومرارة الاستعباد.[1]

من المعروف عن الشعب الليبي أنه شعب قاص، ورث تراثاً قصصياً ليتسامر به بما يرويه من قصص هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحياة الواقعية، ولكن عندما وجهت إيطاليا أنظارها إلى الشواطئ الليبية، هبَّ الشعب الليبي لمحاربة الغزاة، حيث خلَّد التاريخ هذه القصص البطولية الرائعة لمقاومة المستعمر الدخيل، فكانت هذه القصص الشعرية "تمتاز بعذوبة اللفظ وروعة الصياغة، والعمق والأصالة إلى جانب ما كانت تصوره في صدق حياة أبطالها وطبائعهم وعاداتهم، وتقاليدهم في أغراضهم الهادفة إلى التضحية بكل شيء في سبيل حبهم لبلدهم".[2]

ويضيف قائلاً "عندما جاء الاستعمار الإيطالي، بدأ الناس في هذه الأرض الطيبة يروون القصص التي تعبر عن انتفاضة الأحرار وتصور المعارك التي بدأ يخوضها الشعب بكل طبقاته لصد العدوان، ومقاومة قوى الشر والاحتلال ...، وبعد سنة 1922م بدأت محاولات في كتابة القصة تنشر على صفحات مجلة (ليبيا المصورة) التي كان يصدرها يومذاك الأديب الليبي المرحوم عمر فخري المحيشي".[3]

ومن الباحثين من يرى "أن الإرهاصات الأولى للقصة القصيرة في ليبيا تبدأ مع العودة إلى العمل بالدستور العثماني سنة 1908م، حيث شهدت البلاد نشاطاً فكرياً تمثل في صدور صحف شعبية عديدة".[4]

---

(1) ينظر بشير الهاشمي، خلفيات التكوين القصصي في ليبيا، دراسة ونصوص، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ط1، 1984، ص 22.

(2) السابق نفسه، ص 178، 179.

(3) السابق نفسه، ص 178.

(4) أحمد عمران بن سليم، المقالة الأدبية في الصحافة الليبية، مجلس الثقافة العام، ليبيا، دار قباء الحديثة، القاهرة، د.ط، 2008، ص 287.

واستمر هذا التطور إلى أن أصبحت ليبيا اليوم تتقدم حركة النشر وتخطو خطوات موفقة إلى الأمام، فضلاً عن ازدهار الحركة الأدبية وارتقاء الوعي بين طبقات المجتمع على اختلافها، حيث بدأ الأدباء الليبيون يخرجون من عزلتهم إلى مجالات أوسع وأرحب بالاشتراك في مؤتمرات أدبية ساعدت على نمو الحركة الأدبية في ليبيا وبالتالي نشطت القصة الليبية سواء جاءت عن طريق قصص نثرية أو قصص شعرية تحكي واقعاً ما.[1]

ونخلص إلى أن الحياة الأدبية في ليبيا على وجه العموم، وازدهار القصة النثرية والشعرية بجميع مراحلها قد تأثرت بالحركات النضالية التي طرأت على الشعب الليبي وكفاحه المستمر من أجل التحرير، وتخليص الوطن من المعاناة التي عاشها سنوات طوال، فالأحداث جسام، والقهر والتخلف فرض على هذا الشعب عبر العصور الخالية، بذلك اتجه أغلب الشعراء إلى روايات قصصية تَّم نسجها في قوالب شعرية ارتقت من الشعر العامي واتجاهاته المتنوعة إلى مواكبة الأدب العربي في شعره الحديث، نتج عن ذلك مواهب عديدة وشعراء كثر، أشعارهم مليئة بالحث على الجهاد، ورواية القصص المتنوعة، فكانت نداءات الشعراء مجلجلة تُروى في كل مكان نثراً وشعراً خلدها التاريخ عبر عصوره الماضية.

وعلى ما تقدم يمكن القول بأن "فن القصة عاماً ليس جديداً على الثقافة الليبية، وليس صُنواً لهذه الحركة الجديدة التي يرتادها المثقفون ...، وكان دور القصاص الليبي هو الاستعانة بهذا التراث، وهذه الخلفية تخلق فنًّا روائيًّا حديثاً وسيلته في التعبير هي اللغة العربية، التي استردت مكانتها بعد أن فُكَّ عنها القيد، وأصبحت وسيلة التخاطب ووسيلة التعليم، ووسيلة الاستعمال في دواوين الحكومة، ووسيلة التعبير في وسائل الإعلام والثقافة، ولقد بات هذا الأثر واضحاً في اتجاه الكتَّاب إلى فن القصة القصيرة".[2]

2. توظيف الجانب الرمزي في قصة "غيث الصغير"

قيلت هذه القصيدة سنة 1934م أيام الجهاد الغير المتكافيء، والسجون، والمعتقلات ونكباتها في كُلّ من البريقة، والعقيلة وما ترتب على ذلك من تكوين الملاجئ لإيواء أبناء من فقدوا آباءهم، وأصبحوا يتامى في المقرون، وفي سلوق؛ ذكريات تبعث في النفس آلاما وآمالاً. والشاعر هنا يصور حالة نفسية لأولئك الذين أقاموا فيها ... إنها ذكريات لا تنسى[3]، ولكى تتضح صورة الرمز ودلالاته نشير إلى الآتي :

2.1. مفهوم الرمز في الشعر العربي :

عرف الرمز في الشعر العربي القديم، ووجد على صور مختلفة اعتمدت في غالبها على الصور البيانية من تشبيه واستعاره، وكنايه، ولم تقصد هذه الرموز إلى الغموض والإبهام نظراً إلى طبيعة الجزيرة العربية والصحراء حيث الوضوح، أي أنها في غالبها رموز[4]، "مجاز بأشكاله البيانية المعروفة، ولم يخالطها

(1) انظر خلفيات التكوين القصصي في ليبيا، مصدر سابق، ص 180.

(2) خلفيات التكوين القصصي، مصدر سابق، ص 182.

(3) أحمد رفيق المهدوي، ديوان شاعر الوطن الكبير، الفترة الثالثة، عن سنة 1925م، إلى 1946م، طبع على نفقة وزارة العمل والشؤون الاجتماعية بالمحكمة الليبية المعتمدة، المطبعة الأهلية، بنغازي، ط1، 1926، ص 9، 16.

(4) الطاهر محمد بن طاهر، الرمز في الشعر العربي، منشورات جامعة 7 أكتوبر، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط2، 2007، ص 268.

الغموض والتجريد إلا عاماً على نطاق ضيق"[1]، فالرمز في الشعر العربي القديم تعبير غير مباشر استعمله الشاعر، اعتمد فيه على أسلوب من أساليب المجاز كالتشبيه والاستعارة والابتكار غير المباشر أو نحو ذلك.

ومن الرموز، الرمز القصصي الذي ورد على لسان الطير والحيوان أو القصص التي نسجها الخيال حول بعض الأمثال والتعابير وكلها رموز، ومن أمثلته التعبير غير المباشر، قول الشاعر:

أشَـارَتْ بِطَرفِ الْعَيْنِ خِيفَة أهلِهَا إشارَةَ مذْعُور وَلَمْ تَتَكـــلّمِ

فأيقنت أنّ الطرفَ قد قال : مرحباً وأَهلاً وسهلاً بالَحبيْبِ اَلمتيمِ[2]

فالرمز "علاقة تعتبر ممثلة بشيء آخر دالة عليه، فتمثله وتحل معه. والرمز يمتلك قيماً تختلف عن قيم أي شيء آخر يرمز إليه كائناً ما كان، وهو كُلَّ علاقة محسوسة تذكر بشيء غير حاضر".[3]

ولعل من أهم أسباب اللجوء إلى الرمز لدى الشعراء ما يلي :

1_ الشعور بالعجز عن التصريح، وعادة ما يرجع ذلك إلى ظروف البيئة الاجتماعية التي تقيد حرية الشاعر وتمنعه من التعبير عن بعض القضايا الاجتماعية.

2_ الخوف من التصريح الذي يعرض الشاعر للأذى خوفاً من بطش الأنظمة الحاكمة التي لا تقبل النقد، أو خوفاً من الاتهام بالزندقة، أو التعرض لسخط الرأي العام.

3_ الرغبة في التفوق بالظهور بمظهر الإغراب، وبإلباس الشعر طابع الغموض.[4]

فالتصدير الرمزي كان له الدور الكبير في الشعر النضالي في ليبيا، وبخاصة مرحلة الاحتلال الإيطالي بعد أن هيمن المحتل على البلاد، حيث وجد الشعراء وكتَّاب الكلمة للرمز أهمية كبرى في البوح بما يريدون التعبير عنه. ولما كان الشعر النضالي في ليبيا موجهًا إلى الإنسان الكادح البسيط الذي عانى من قهر المستعمر البغيض، فإن الشعراء قد ابتعدوا عن محيط الرمز الموغل في التعقيد والغموض الذي يصعب فهمه، فالمراد هو توصيل الكلمة للشعب لمقارعة المستعمرين في رموز سهلة وواضحة.

بالإشارة إلى موضوع البحث تحدث خليفة التليسي بقوله : وإنما أراد الشاعر بهذا الرمز مخاطبة الأجيال الناشئة ودعوتها إلى أن تتحمل في نفسها الحقد والثورة على الاستعمار والمستعمرين...، وقد تحول الطفل إلى رمز نفسي عميق لليبيا كلها التي كانت أعماقها تهتف بالثأر والانتقام.[5]

حينما بدأ الشاعر قصته الشعرية التي مطلعها :

هُوَ في الملجأ،[6] مِنْ دُونِ اليتَامَى دَائِمَ الصَّمْتِ وقَارًا واحتِشامَا

(1) ياسين الأموي، مذاهب الأدب ومعالم وانعكاسات الرمزية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص 122.

(2) انظر ابن رشيد القيرواني في كتابه محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجيل، بيروت، لبنان، حققه، محمد محيي الدين عبدالحميد، د.ط، د.ت، ج1، ص 268، 309.

(3) محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999، ص 488.

(4) أحمد محمد الجرم، اتجاهات نقد الشعر الليبي الحديث، منشورات جامعة 7 أكتوبر، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2010، ص 126.

(5) رفيق شاعر الوطن، مصدر سابق، ص 172.

(6) هو ملجأ المقرون، قرية صغيرة تبعد حوالي 75 كم عن بنغازي على طريق بنغازي طرابلس، مبنى أقيم من أجل الأيتام الذين فقدوا ذويهم بسبب عملية الإبادة التي قام بها الإيطاليون للقضاء على البقية الباقية من المجاهدين ليستنتب لهم الأمر، ينظر ديوان شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 9.

قصيدة غيث الصغير من القصائد التي خلدَّت تاريخ كفاح الأجداد ونضالهم المستميت ضد الغزاة، حيث صوَّر شاعرنا كفاح الليبيين في صورة غيث الصغير، وهو أحد نزلاء معتقل المقرون بالشرق الليبي الذي لم يكن بدوره إلا صورة مكررة لآلاف الملاجئ من نوعه، حيث جميع من فيه عاشوا مأساة واحدة في مرارتها، وإن اختلفت تفاصيلها الزمانية والمكانية.

تحدث أحمد رفيق المهدوي عن غيث، يخلد فترة من أكثر فترات وطننا ظلاماً وصموداً في نفس الوقت، ظلام ليل الاستعمار وحكمه، وصمود الشعب ونضاله. وحرارة هذه القصيدة وصدقها تنبع من المعاناة التي عاشها الشاعر تحت حكم الطغاة بتعرضه للتنكيل والمخاطر تحدياً لسلطان الفاشست.

ولعل من "أبرز الأساليب التي شاعت في أواخر الحكم الإيطالي : الأسلوب الرمزي، وهذا اللون من التعبير يشيع في الناس عادة حيث تقيد حرياتهم، وحين يمنعهم الخوف من الجهر بآرائهم.."[1].

قال الشاعر:

هُوَ في الملجأ مِنْ دُونِ اليَتَامَى ... دَائِمَ الصَّمْتِ وَقَــارًا واحتِشَامَا
وَاضِحَ الجِد، قَلِيلاً مَــا يُرَى ... ضَاحِكاً، إلاَّ إذا اسْتَحْيَا ابْتِسَامَا
نَافِــذَ اللَّحْظِ، تَــرَاهُ نَاظِراً ... نَظْرَةَ الأَجْــدَلِ، يَرْتَادُ الحِمَامَا
يَتقِــي أَقْــرَانُهُ صَوْلَتَهُ ... حِينَ يَحْتَدُّ إِذَا اشْتَدواْ خِصَامَــا
رَمَــقُوهُ باحْــترام هَيْبَةً ... وَقَــدِيماً، أَوْرَثَ الجِدُّ احْتِرَامَا
وَإِذَا الْجِدُّ مَــعَ العزم التَقَى ... جَعَــلاَ للمرءِ في النَّاسِ مَقَامَا[2]

لقد "حدد الشاعر شخصية الطفل، وصور لنا صفاته الأخلاقية التي ميزت شخصيته بالجد والوقار والصمت والبعد عن العبث مما أكسبها هيبة واحتراما، وأفردها بخلالٍ ميّزتها عن بقية الأطفال. وتحديد الشاعر لملامح الطفل يتفق مع المهمة التي يعدُّ لها نفسه في المستقبل، وتتفق مع مشاعر الثأر والانتقام".[3]

اختيار أحمد رفيق لشخصية غيث في صورةٍ رمزية من خيال الشاعر في كون الطفل من نزلاء تلك الملاجئ العديدة التي وُضِعَت لقهر أبناء الوطن، فعندما زار غراسياني السفَّاح الإيطالي الملجأ الذي به غيث، لفت نظره الغلام فتحادث معه وقال له : لو أعطيتك مبلغاً من المال ماذا تشتري به؟ فأجابه غيث الصغير على الفور أشتري به مسدساً لأنتقم ممن قتل أبي وأمي وشّرد أهلي، فأمر غراسياني بوضع السم للغلام، حيث مات مسموماً، وقال غراسياني : لو بقي هذا الغلام حياً لا شك أنه سيكون وبالاً علينا.

هكذا استطاع رفيق في هذا الرمز الشامخ أن يقدم هذه القصة الشعرية في أسلوب رائع رقيق له تأثيره في القارئ والسامع ليوصل بكلماتها عداءَه للاستعمار، ويجسد في أعماق أبناء شعبه حبَ الوطن، وكُرْهَهُ للاستعمار وأعوانه.

(1) أحمد محمد الجرم، اتجاهات نقد الشعر الليبي الحديث، منشورات جامعة 7 أكتوبر، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2010، ص 171.

(2) أحمد رفيق المهدوي، ديوان شاعر الوطن الكبير، الفترة الثالثة، مصدر سابق، ص 9، 10.

(3) رفيق شاعر الوطن، مصدر سابق، ص 172.

ويسترسل أحمد رفيق المهدوي في قصته الشعرية بقوله :

هُوَ فِي الْمَلْجَأ أَذْكَى طَـــالبٍ ... بَـذَّهَمْ حِفْظاً، وَفَهْماً وَانْتظَامَـا
فَهْوَ رَأْسُ الْقَومْ، رَأْيًا وَهُـــدىً ... شَيْخُهُمْ عَقْلاً، وَإِنْ كَـــانَ غُلاَمَا
دُونَ تِسْعٍ، ناحفٍ، في صحَّةٍ ... وَاسْتَوَاءً كَالـــــرديني قَـوَامَـــا
تَسْتَـجِي عِـــزَّةُ نَفْسٍ شَمَخَتْ ... لِلْـــعُلاَ، ألاَّ يـــرَى فِيهِمْ إِمـامَا
وَإِذَا نَفْسُ الفـــتى شَبَّت عَلَى ... عِزَّةٍ، زَاحَم لِلْمَـجْدِ وسَـــــامَى
لَيْسَ غَيْرَ النَّفْسِ بِاسْتِعْدادِهَـا ... سَوَّدَتْ فِي سَالِفِ الْعَصْرِ عِصَاما [1]

وفي تعليق لصالح بويصير[2] يقول : "وأمام هذه النفس السامية التي تتخطى بشموخها حضيض الواقع المنهاز وقيود الذل والأسر والقيم، ينحني الشاعر بقامته الفارهة ليسأل الولد الصغير، ليسمع منه قصة كل طفل، قصة أيتام ليبيا".[3]

جِئْتُ إِعْـجَاباً بِه أَسْأَلُـــهُ ... فَتَبَسَّمْتُ وأهديتُ السَّلاَمَـا
هَـبَّ كَالشبلْ نَشَاطاً وَاقِفاً ... وَقْفَةَ الجُنْدِي للقَائدِ قَامَـا
أَطْرَقَ الرأس، وحَيَّا خَافِضًا ... طَرفه، مِني حَيَاءً، وَاحْتِرَامَـا
قُلْتُ : يَا غَيْثُ، أَلاَ تُخْبرنُي ... عَنْكَ، إِني بِكَ قد زِدتُ اهتِمَامَا
فِيكَ يَا غَيْثُ، تَوسَّمْتُ فَتىً ... أَرْوَعاً حُـــرًّاً، وآباءً كرَامَـا
ابْنُ مَنْ أَنْتَ؟ وَمَنْ قَوْمُك؟ مَنْ ... لَكَ فِي ذَا الْمَلْجأ اختار المقاما[4]

يعلق صالح بويصير على تلك الأبيات السابقة بقوله : "ويبلغ التصوير التاريخي ذروته عندما نرى فيها الطفل يذاب له السم، ويترنح ألماً، ثم يبرح به العطش ويطلب الماء فيبتسم ويتلوى فيتجاهلون، ما زال ينفث الدم الأسود من كبد أذابها السم وفتتها الحقد على الظالمين حتى مات".[5]

فالصورة التاريخية التي قدمها شاعر الوطن الكبير أحمد رفيق المهدوي، في رمزية الطفل غيث، أكدت على ثمرة نضال الشعب الليبي والتحديات التي واجهت المقاومة الخالدة مما قدمه أبناء الوطن من دماء سالت على تراب هذا الوطن الحبيب في مواجهة الاستعمار الدخيل لتروي به غرسات يانعة تنهض بالوطن مداداً لتضحيات الآباء والأجداد، فلتكن هذه الصورة التاريخية تراثاً إنسانياً، وشعلة مضيئة في تاريخ نضال الشعوب، وصمة عار للغزاة الذين دنسوا الأرض وانتهكوا الحرمات، وسلبوا الخيرات.

---

(1) العصمة في كلام العرب: المنع، ويعصمه الله عبده أي عصمه يعصمه عصماً: منعه ووقاه، والعاصم : المانع الحامي والاعتصام:الامتساك بالشيء، ينظر لسان العرب المبسط، مصدر سابق، ص 798.

(2) صالح مسعود بويصير، ولد في بنغازي سنة 1925، درس بالمدارس الإيطالية ببنغازي، ثم التحق للدراسة بالأزهر الشريف في الفترة من 1938 – 1944م، حصل على درجة الليسانس في الأدب العربي، ثم ماجستير بامتياز في التاريخ الحديث، كان من الصحفيين البارزين، عمل رئيساً لتحرير جريدة برقة الجديدة، له مؤلفات عديدة، توفي في حادث اسقاط طائرة الركاب الليبية فوق سيناء المحتلة بواسطة الطائرات الصهيونية ظهر يوم الأربعاء في 21 فبراير سنة 1973م، ينظر دليل المؤلفين العرب الليبية، مصدر سابق، 159.

(3) مهرجان رفيق الأدبي، بحث بعنوان التصوير التاريخي في قصيدة غيث الصغير لصالح مسعود بويصر، مرجع سابق، ص 65.

(4) ديوان شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 10.

(5) مهرجان رفيق الأول، مصدر سابق، ص 73.

3. عناصر البناء السردي وهي : (الشخصية، الحدث، الزمان، المكان).

3.1. الشخصية : الشخصية التي قام عليها البناء السردي هي شخصية "غيث الصغير" هذه الشخصية قد تطورت بتطور الأحداث التي قام عليها البناء السردي للقصة، معبرة عن غطرسة الاستعمار التي هيأت الشخصية لتكون أداة انتقام، أي أنها شخصية انتقامية، فقد استطاع الكاتب أن يحولها إلى شخصية قريبة من الواقعية، لأنها تمثل في الحقيقة المعاناة التي عاناها الشعب الليبي من ذل الاستعمار، ليعبر عن ذاته، والدفاع عن نفسه وأهله ووطنه تجاه القوة الغاشمة التي احتلت أرضه وقتلت شعبه، وأيضاً قتل كل إنسان ناضل من أجل مجتمعه وعروبته.

فأحمد رفيق المهدوي استطاع أن يعين صفات هذه الشخصية من خلال الاستهلال الذي قام به في بداية القصة الشعرية، بل اعتبر أن هذه الشخصية شخصية انتقامية باعتبارها ترمز إلى جيل بأكمله، ومن جانب آخر فهي شخصية الشاعر حسب تصوره باعتباره الراوي لأحداثها والمطلع على ما تعانيه ليبيا من ويلات الاستعمار البغيض.

واختيار أحمد رفيق لسمات الشخصية من صغر سن غيث وفقده لأهله، حيث عاش يتيماً وتصويره لقوة الشخصية لدى الطفل رغم ما يعانيه من عجز أمام مستعمر قوي، مع هذا كله قارع المستعمر وصرخ في وجهه، فهي الشخصية البطلة التي نلمس تطورها بتطور الأحداث حيث هيأها الاستعمار لتكون أداة انتقام، أى أنها شخصية انتقامية وقريبة من الشخصية الواقعية لإنسان اليوم، فهي تمثل معاناة الشعب الليبي في التعبير عن ذاته والدفاع عن نفسه وأهله ومجتمعه.

3.2. الحدث : وبالإشارة في بحث قدمه عبدالكريم خضير السعيدي بقوله "أما الحدث في "غيث الصغير" الذي هو الواقع والأفعال التي تقوم بها الشخصية وتكون موجهة نحو نهاية محددة، فما لا شك فيه هو حكاية ذلك الفتى الذي اسمه "غيث" الباقي من عائلة مكونة من سبعة أفراد شتتها الاستعمار. فالأب قُتل والأم مجهولة المصير والإخوة ماتوا بفعل الطبيعة التي لا ترحم من يعيش في الكهوف خالي الوفاض من ضروريات الحياة، ومن ثم بقائه وحيدًا في ملجأ أشبه بالسجن ليلاقي حتفه مسموماً".[1]

قال لوتمان في هذا الشأن إن "الحدث داخل النص هو تنقل الشخصية عبر حدود الحقل الدلالي، فالحدث يوجد عندما يتظافر عنصران : الشخصية والحقل الدلالي، والفعل الصادق عن الشخصية يعدُّ حدثاً في حدود أنه يقوم بتحطيم حاجز ما، أو خرق قانونها، أو الخروج عن مألوف ما، لكن هذا الحدث نفسه لا يدرك كحدث أو لا حدث إلاَّ ما يوضع داخل إطار ثقافة تحدد وضعه وسمكه".[2]

ومن خلال تسلسل الأحداث التي مرت بحياة غيث يمكن التنبؤ بالنهاية بمجرد اعطاء الوالي لغيث المبلغ المالي والذي سأل عما سيفعل به؟ فأشار في إجابة صريحة إلى الثأر ممن قتلوا والديه، أى الثأر من إيطاليا، فعرفنا الخاتمة وتنبأنا بها من دون الاعتماد على المفاجأة، فكانت الخاتمة متوقعة.

3.3. المكان : هو ذلك الفضاء أو المساحة التي تقع فيها الأحداث السردية.

(1) عبدالكريم خضير عليوي السعيدي، السرد في شعر أحمد رفيق المهدوي، مجلة كلية التربية الأساسية، واسط جامعة سومر، العدد الخامس عشر، ص 59.

(2) سعيد بنكراد، شخصيات النص السردي – البناء الثقافي، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المغرب، د.ط، 1994، 35، 36.

من خلال البناء السردي لقصة غيث الصغير، يمكننا الكشف عن ثلاثة أمكنة واضحة تدور حولها القصة السردية، وقبل ذلك أشير إلى قول سمية البشير ضو في توظيفها لبنية المكان حيث تقول :

1_ الفضاء كمعادل للمكان وقصد به الحيز المكاني في الحكي عامة ويطلق عليه عادة الجغرافي.

2_ الفضاء النصي ويقصد به الحيز الذي تشغله الكتابة ذاتها باعتبارها أحرفاً طباعية.[1]

ومن الأمكنة التي حوت القصة : المكان الأول : البيت وهو المكان الأليف حيث يمثل الحياة الهانئة والسعيدة، وهو مكان عاش وترعرع فيه مع قبيلته وأسرته مكان والده الذي هو سيد في قومه فارس مكرم للضيف؛ فانعكست هذه الأصالة على سلوك الطفل الصغير غيث فتربى على ما كان عليه أبوه ويتضح ذلك من خلال تصرفاته مع الوالي الإيطالي.

أما المكان الثاني : فهو المكان المؤقت الذي يمثل الكهف أو الغار الذي استقرت فيه عائلة غيث بعد الهرب من السلطة الاستعمارية، يتضح ذلك من خلال قوله :

سَاقَنا الخَوْفُ إِلَى غَــارٍ بَدَا تَتَوَقَّى الْجِنُّ فِيهِ أَنْ تَنَامَـا

مَا دَخَلْنَا الغَارَ، حَتَّى هَجَمَتَ ضَبُعُ، فَافْتَرَسَتْ مِنَّا غُلاَمَا

فقد كان هذا المكان انعكاساً للحالة النفسية لأسرة غيث، الأمر الذي ترك في نفسيته حقداً وكرهاً وانتقاماً من المستعمرين الذين سرقوا حياته السائغة الهانئة المطمئنة طعم الراحة والاستقرار في بلده.

المكان الثالث : هو الملجأ أو السجن الذي أودع فيه بسبب الاستعمار فانعكس ذلك على نفسية غيث الصغير حيث عبَّر عن ذلك بقوله :

كَتَـمَ العَــــبْرة إلاَّ نَبْرَةً عَرَضَتْ في الصَّدْرِ عَاقتهُ الكَلاَمَا

جَاشَتِ النَّفْسُ بِحُزْنٍ مِثْلَمَا جَالت الدَّمْعَةُ في الجفْنِ انْسِجَامَـا

وَانْثَنى مُتبسماً حُزْناً وَمَـا أَقْبَحَ الْحُزْنُ إِذَا لاَحَ ابْتِسَامَـــا

فهذا الفضاء المكاني كشف عن التحولات الداخلية التي طرأت على الشخصية التي يمثلها غيث الصغير في سجنه ظلماً وعدواناً، فهو ضحية هذا السجن المعتم.

3.4. الزمن : يصل بنا الحدث السردي للقصة إلى آخر عنصر من عناصر التكوين السردي وهو عنصر الزمن، فالزمن هنا "هو الزمن الوجداني ذلك الذي تقف فيه ساعة الحائط لتدمر ساعة القلب، إنه الزمن السردي الذي يتخطى الساعات والأيام والأجيال، ويختلط فيه الماضي بالحاضر والمستقبل، وهو الخط الذي تسير الأحداث عليه".[2]

فلو رجعنا إلى بداية الاستهلال، نلاحظ استباق حدث واحد في السرد وهو التعرف من البداية على وجود غيث الصغير في الملجأ، وبعدها يتابع الحدث تتابعاً منطقياً للقصة، حيث يسترجع الراوي الأحداث الماضية المتعلقة بحياة غيث وأسرته والمصائب التي ألمت به وبأسرته، ثم يتابع سرد الأحداث إلى أن يصل في آخر القصة الشعرية وهي نهاية موت غيث، فهي وقائع يفترض أنها جرت في ساعات وأشهر وسنوات، لكن

(1) سمية البشير ضو، عناصر السرد في قصيدة غيث الصغير، المؤتمر العلمي الأول بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة الزاوية، 5. 6. 11، 2018، ص 284.

(2) السرد في شعر أحمد رفيق المهدوي، مرجع سابق، ص 60.

الراوي اختزلها في كلمات قليلة أو أسطر من دون التعرض للتفاصيل، ولكن في تصوري أن الزمن الذي اختاره يشير إلى كلمات قليلة تستدعي تفسيرات كثيرة، وهذا مرجعه إلى قدرة الراوي وما يتخيله وما يرمي إليه من مقاصد الثورية البلاغية.

انتهى المقطع الأول من الأبيات القصصية بوصف حالة الطفل غيث من حيث أخلاقه وشخصيته التي ميزته بالجد والوقار، وبتفوقه على أقرانه حفظاً وفهماً، في إشارة إلى أنَّه قائدهم في الرأي والحنكة، ولم يكتف بذلك بل وصفه بأنه شيخهم رغم صغر سنه، وهذا دليل على ذكائه وهو دون التاسعة من عمره، فهو نحيف الجسم، صحته عليلة، مستويًا مثل استواء الرديني، وهو الرمح، وله عزة نفس تأبى قبول الهوان، وأنها تزاحم على اكتساب المجد والتسامي إلى العلا، ليصل بنا إلى مضمون القصة التي نسج أحمد رفيق شعره القصصي من أجلها.

فالأبيات الأولى تتكلم على رمزية الطفل غيث، واختيار الشاعر كان اختياراً موفقاً، ليحكي قصة الظلم والقهر والطغيان الذي حلَّ بالشعب الليبي من نير الاستعمار البغيض، تروى لتسجل مشهد تاريخي عبر السنوات الماضية لتحفر ذكريات مريرة في ذاكرة الشعوب.

4. القضايا التي تناولتها القصة :

مرت أسئلة كثيرة تثير ذكريات الألم والمحنة التي مرت بها نفسية غيث الصغير وهو يبتسم، ويخفي الحزن الشديد ويواريه بابتسامة، يقول الشاعر:

كَتَـــمَ الـــعبرةَ، إلاَّ نَبْرَةً ... عَرَضَتْ في الصَّدْرِ عَاقَتْه الكَلاَمَا
جَاشتِ النفْسُ بِحُزْنٍ مثْلَما ... جَالتِ الدَّمْعَةُ، في الجَفْنِ انْسِجَامَا
وَانثَنَى مُتَبسماً حُزْناً، وَمَا ... أَقْبَحَ الحَـــــزْنَ إذا لاحَ ابْتسَاما[1]

المشهد الأول / صورة الملجأ الذي ينطوي على مأساة مروعة، فالصورة تصويرية جميلة تمثل حزن غيث الصغير، وهي تلك العاطفة التي ربطت بين الشاعر والشبل اليتيم، وتلك الشجاعة التي جمعتها متحدية الطغيان والعسف والظلم، ويتضح ذلك في سؤال الشاعر، وإجابة اليتيم.

المشهد الثاني / تعاطف الشاعر وحنانه مع غيث الصغير، في صورة الأب والابن، وهنا غيث ينكر البكاء أمام الآخرين خوفاً أو خشية الملاما، ولكن الحنان الذي لمسه من الشاعر يجعله يفضي ما بقلبه فيقول :

قال : يَا مـــولاَيَ! لَوْ غَيْرُكَ لَمْ ... أَبْكِ في حَضْرَتِه أَخْشَى مَلاَمَا
مِنْكَ، آنستُ حَنَاناً، لَمْ أَجِـــدْ ... بَعْدَ أُمي مِثْلَهُ، يَشْفِي أَوَامَـــا[2]
إنَّ للشَّاعِرِ رُوحـــاً، خُلِـقَتْ ... فَوْقَ رُوحِ الخَلْقِ، حسّاً وغَرامَا
لَكَ، يَا مولاي، أُفضِي بِالـــذِي ... كَادَ صَدْرِي مِنْهُ يَنْشقُّ اكتتَامَا
إنَّ فِي الشَّكوى، إلى ذِي رَحْـمَةٍ ... سَلوة، تُشْبهُ بالصَّبرِ اعْتِصَامَا
رُبَّ شَكْوى ! جَعَلَتْ نَارَ الأَسَى ... نَار إبراهيم بَرْداً وَسَلاَمَـــا[1]

(1) ديوان شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 11.

(2) أوم : الأوامُ بالضم : العطش، وقيل حرّه وقيل شدة العطش ... انظر لسان العرب لابن منظور، ص 134.

فَارْعَ لي سَمْعاً، فَـهذي قِصَّتِي تَشْرَحُ البؤْسْ، ابتداءً وخِتَامَـا[2]

المشهد الثالث / بداية القصة "وهي الملحمة التي أراد الشاعر أن يسجلها عن وحدتنا الوطنية" فيقول :

كان مسعود أبي، في قومـِهِ سَيدَ الأَعْرَابِ مَعْرُوفاً هُمَامَـا
فارسَ الخيلِ، غيَّاث المُحتَمَى مُكْرِمَ الضَّيْفِ، كَفِيلاً للأَيَامَى[3]
بَارِكَ الله له في ثَـــــروةٍ تَملأُ الوادي ثُغاءً وبغامـــا[4]
وله من بنت عم، إخـــوتي خمسة، تنقص البدر التمـاما
مرت الأيام، لـــم نعرف لها كدرا، من نعم كانت جسامـا
فكأن الـــــدهر إذ سالمنا سهر السعد لنا، والنحس ناما[5]

يحكى غيث في قصته عن والده حينما كان سيداً في قومه، له حياته وثروته، وكان فارساً، فيه كل الصفات العربية الأصيلة من كرم ونجدة، وغير ذلك، وهذه الحياة الرضية لم تقعده عن أداء واجبه الوطني، يتساوى في ذلك الغني والفقير في وحدة وطنية تدود عن تراب الوطن الغالي، صورة متكاملة للجهاد تسقط كل الدعاوى الحديثة عند غيرنا، والمشكلة من أن الجهاد وقف على طبقة معينة "فهذا المجتمع العربي الذي يحكي عنه غيث، أو الذي يصوره رفيق على لسان غيث، لا يقوم على الفردية الأنانية، ولا يتكون من بيت واحد ولا خيمة واحدة، بل من مجموعة ترابطت حياتها فكانت سعادتها مشتركة فيما بينها متكافلة متراحمة".[6]

المشهد الرابع / صورة الاستعمار الذي خرب ودمَّر :

بينما الحي رقـــود، إذ علت صرخـــة، تنذر بالشر اليتاما
ثارت الأطفال من مضجعها تملأ الرحب صياحاً وزحامـــا
رجت الأرض، صهيلا مفزعا ورغاء، ونباحًا، وخصامـــا[7]
لبسوا ثوب الدجى، أيدى سبا يخبطون البيد، في البر انهزاما[8]
تركوا الأثقال، والمال، ومـا خف حملا، والمطايا، والخياما[9]

يعلق صالح بويصير على الأبيات السابقة فيقول : "والأمانة التاريخية، والوعي الوطني يتلازمان، فالذين هبوا وتفرقوا أيدى سبا، لم يفعلوا ذلك خوفاً من ملاقات العدو، بل صونا بالأطفال والنساء ومن

---

(1) نار إبراهيم : إشارة للآية الكريمة "قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم"، وذلك لما أراد قومه القاءه في النار عندما ندد بأصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

(2) ديوان شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 11.

(3) الأيامى هم : الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء وأصله أيايم وفي التنزيل "وأنكحوا الأيامى منكم" دخل فيه الذكر والأنثى والبكر والثيب ... انظر لسان العرب لابن منظور، ص 145.

(4) ثغاء : الثغاء : صوت الشاه والمعز وما شاكلها. وفي المحكم : الثغاء صوت الغنم والظباء عند الولادة وغيرها وهو الطياح، انظر لسان العرب المحيط لابن منظور، دار الجبل، بيروت، لبنان، المجلد الأول، 1988، ص 361.

(5) ديوان شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 11، 12.

(6) مهرجان رفيق الأدبي، مرجع سابق، ص 67.

(7) خصم – الخصومة : الجدل، خاصمته خصاماً ومخاصمة ... أي غلبه بالحجة ... انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، م2، ص 843.

(8) الهزم – غمر له الشيء، تهزمه بيدك فينهزم ... والجمع هَزْمٌ وهِزُومٌ ... انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، م6، ص 805.

(9) ديوان شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 12.

تنكيل الفاشست الوحشي، وعندما دفعوا بالأطفال والنساء العزل بعيداً عن رصاص العدو وقفوا هم للشهادة والبطولة".[1]

في وصف الشاعر، صورة مروعة وفاجعة لا مثيل لها، استطاع أحمد رفيق أن يصورها تصويراً دقيقاً، موضحاً ما فعله الاستعمار من تخريب للاقتصاد، وتدمير للثروة، وتشريد للشعب.

المشهد الخامس / تصوير شجاعة المجاهدين :

ورأى الأبطال، أن المـوت لا ... شـك فيه فتلقوه زؤامـا[2]
قيدوا أرجلـهم صبرًا فمـا ... حلها غير رصاص يترامـى
حلها من ربقة العار، ومـن ... عيشة الذُّلِ، فقد ماتوا كرامـا
هون الخطب علينا، مـوتهم ... في دفـاع، كان للحق انتقاما
ما ترى في الحي حيًّا، بعد ما ... فَرَّتِ النسوة، يحملن اليتامـى
سلكوا في كل شِعْـب، هربا ... يستجيرون من الظلم، الظلاما[3]

فالتصوير التاريخي الذي سلكه أحمد رفيق في قصيدته يروي لنا صمود الأبطال في ساحات الوغى، وكانوا ينفون من خاطرهم فكرة الارتداد والتراجع، ويشير إلى ذلك في تصوير حالة القتال عند اشتداد المعارك حين يربطون أرجلهم ربطاً محكماً فلا خيار، فأما عدو منهزم، أو شهيد أدى الأمانة فقال :

ورأى الأبطال أن الموت لا ... شك فيه فتلقوه زؤامـا
قيدوا أرجلهم صبراً فمـا ... حلها غير رصاص يترامى

الإبداع ما صوره الشاعر أن الأبطال يقدمون على الموت المكروه دون تأخر، مما يفسر موقفهم في البيت الثاني بأنهم مصممون على الشهادة، حيث قيدوا أرجلهم ليثبتوا في المعركة للنصر أو الشهادة، فإما العيش بكرامة أو الموت بعزة.

المشهد السادس / وضع الشعب بعد الغزو الإيطالي "المشهد الحزين" :

يقول :

لست أنسى إخـوتي، في جبل ... يتضاغون[4]، من الجوع صيامـا
منذ يومين، يسيرون، ومـا ... شربوا مـاء، ولا ذاقوا طعامـا
ساقنا الخوف إلى غار بـدا ... تتـوق الجن فيه أن تنامـا
ما دخلنا الغار، حتى هجمت ... ضبع فافترست منا غـلاما
وانثنت في إثر ثان، فـاقتفت ... طفلة، في لحظة صارت عظاما
وتـردى ثالث في هوة ... لم يزد عن قول (يا أم) كلامـا

(1) مهرجان رفيق الأدبي، مرجع سابق، ص 67.

(2) زأم – زَئِمَ الرجلُ زَأَمًا، فهو زئِمٌ، وأزد أم فزع واشتد دعره ... وهو غاية الدعر والفزع ... انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، م3، ص 4.

(3) ديوان شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 12.

4) يتضاغون : يضغن، والضغينة : الحقد، وتضاغنوا، واضطغنوا، انطووا على الأحقاد، ينظر مختار القاموس للطاهر الزاوي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1980، ص 373.

أمـه تجري، ولا تدري، وفي صدرها من لم يطق بعد فطامـا[1]

الأبيـات السـابقة، تحكي صـورة مأسـاوية عاشـها الشـعب الليبي إبـان الاسـتعمار الإيطـالي، ولعـل الجانب العاطفي الذي عبَّر به الشاعر قد غلب الجانب الفكري باعتبار أن العاطفة أرق في نقل التجربة من غيرها، فعن طريق العاطفة حاول الخيال أن يعرض الصورة المفسرة لمعاناة الشعب في فترة الحقبة الزمنية التي يعيشها، فأحسن التنسيق وألف بين عناصر الصورة التشبيهية، ولاءم بين صفاتها معتمداً على تكامل جوانبها، حيث وصل إلى مكامن الحياة في عمق دلالاتها من خلال التجسيم، والتشخيص في صورة شعرية رائعة.

فيصور الشاعر حالة البلاد المشتتة الأطراف، المقطعة الأوصال، التائهة في ظلام الجور وما يمر بها من فواجع العصر، ونوائب الدهر، يصورها بالأم أثناء الفاجعة، يقودها الفزع والخوف إلى حيث لا تدري، فتفقد أعصابها، وتنسى أطفالها، فيفقدون رشدهم، من هول ما أصابهم، بعضهم يصارع الموت في الصحراء، والبعض الآخر يموت من عشق الأوطان، والحالة تتعاظم في قوله :

تركت أطفالها صرعى، لها لفتة، كانت إلى القلب زمامـا
خلفتني، وهي لا تعلم، هل خلفها أتبع، أم (فُتُّ)[2] أمـامـا
خانني عزمي، ورجلاى، فلم أستطع من شدة الهول قيامـا
ففقدت الرشد، مغشيًا فـما قمت حتى هزم الضوء الظلامـا
وفقدت الأم لا أعلم هـل أفلتت بالطفل، أم ماتا هيامـا
ليتني أسمع عـن موتها فلقد أبقت لي الـهم لزامـا[3]
حبذا الموت ولا العيش هنا خاضعًا، في رتبة الأسر مضاما
وهنا أجهش غيث نـاصباً إذ رأى دمعي كالغيث رهامـا
وارتمي بين ذراعـي، فما رام عـن صدري ضما، والتزاما[4]

يعلق عبد ربه الغنَّاى على هذا الموقف الدرامي، فيقول : "القصة أبدع ما صورها شاعر أديب، ورفيق أعطى الميزان والمضمون والقافية والتعبير الحق الآخر من المفردات التي تتناسق وروعة الواقعة، غير أنه بالغ كثيراً في المأساة، وهذه المبالغة محببة، فالضبع التهم أكثر من اثنين، والأم ماتت، والنجع تشتت، وفي الغار الذي لا يكاد يسكنه الجن ... فهذه المبالغة هي جميلة عظيمة، ومرغوبة في الشعر القصصي".[5]

ويشير صالح مسعود بويصير بقوله بأن رفيق قد "صور الموت في تاريخ هذا الشعب صوراً جاءت على كل لون وعلى مختلف الرسوم ...".[6]

(1) ديوان شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 13.

2) فت : كلمة يتداولها الناس كثيرا وهي أقرب إلى العامية.

(3) لزم – اللزوم بمعنى : لزم الشيء يلزمه لُزُمًا ولُزُومًا ولازمة ملازمة ... ورجل لزَمَهُ يلزم الشيء فلا يفارقه ... انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، م5، ص 362.

(4) ديوان شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 13، 14.

(5) عبد ربه الغناى، رفيق في الميزان، مصدر سابق، ص 27.

(6) مهرجان رفيق الأدبي، مرجع سابق، ص 70.

المشهد السابع / صورة المعتقلين في سجون الأعداء :

يقول :

بينما، رحت أُهدي روعـــه ... وإذا بالقوم يُبدون اهتمامـــا
قيل : هذا (دولة الوالي) أتى ... ليرى في (ملجأ البِرِ) النظاما[1]
خرج الأطفال، واصطفوا لـه ... للتحيات، هتافاً وسـلامـــا
جال، يستعرضهم، ممتـحناً ... وهو يختار غلاماً، فغلامـــا
ما رأى منهم كـغيث إذا رأى ... من ذكاء، عجبا، فاق الأناما
خـــاطب الطفل مليا، فرأى ... رابط الجأش فصيحًا لا كهاما[2]
قال : هـــذا عبقري فارفعوا ... قدره، إني سأعطيه وسامـــا
فتلقاه بشكـــر، مظـــهراً ... لسرور، تحته يخفي احتداما[3]
وحباه بنقـــود، قائـــلاً ... أعط انفاقها النفس مرامـــا[4]

في الأبيات السابقة صورة تاريخية مع رجال الاحتلال، ودور الولاة الطليان حين يزورون تلك المعتقلات للتأكد من أن مخططاتهم تنفذ كاملة، ومع هذا رأوا شعلة الوطنية تضيء تلك الجوانب حينما جربوا كل الحيل في اطفائها وباءت بالفشل.

قال :

يا مـولاي أقصى غايتي ... صرفها بين الأخـلاء اقتسـاما
لا أحب البخل، إنَّا معشر ... نؤثر الغير، ولو بتنا صيامـا
هكـــــذا، علمنا آباؤنا ... طيب الأخلاق فعلاً، لا كلاما[5]

الحيلة والعطاء لم ينجح مع غيث، ويرفض أن يتأثر بالثروة، فيرد الوالي الإيطالي خائباً متضامناً مع إخوته، ولكن الإصرار الاستعماري لا ينهزم بسهوله بل يضاعف الإغراء لغيث فيقول :

خذ يا غيث، هذي مائة ... لك لا تسرف، وكـن فيها قواما[6]
يا مـــولاي سمعا إنني ... سوف أبقيها، وإن كانت حطاما[7]

فالخبث الاستعماري يبحث عن عقلية غيث، وما يفعل بهذه الأموال التي قدمت له :

---

(1) دولة الوالي : لقب لحاكم الولاية والمقصود هنا الحاكم الإيطالي، ملجأ البر : يقصد به ملجأ المقرون.

(2) كهيم : كهم الرجل بكهم كهامة ... وكهمته الشدائد : نكصته عن الأقدام وجبنته... انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، م5، ص 309.

(3) حدم : الحدمُ شدة اجماء الشيء بحر الشمس والنهار، تقول خدمة كذا فاحتدم، وقيل : احتدم الدمُ إذا اشتدت حمرته حتى يسود ... انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، م1، ص 589.

(4) ديوان شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 14.

(5) أشار الشاعر إلى الفتى بأنه طيب الأخلاق، تربى على ذلك فأشار بأن تمام أخلاقه بالفعل لا بالحديث مسيرته تنطبق على واقعه في الحياة، فالكلام في هذا الاتساع إنما هو محمول على الحقيقة والفعل دون الكلام وهذا ما يرمي إليه الشاعر عند الحديث عن أخلاق الفتى.

(6) قوم : القيامُ نقيض الجلوس، قام يقوم قوْماً وقياماً وقومه وقامةً والقوْمةُ المرة الواحدة... والقوامُ : العدل : قال تعالى : "وكان بين ذلك قواماً" ... انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، م5، ص 191، 192.

(7) حطم : الحطمُ : الكسر في أي وجه كان ... وحُطام الدنيا كلُّ ما فيها من مال يفنى ولا يبقى، انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، م1، ص 664.

قال : ما تصنع يا غيث بها قل لي الحق، ولا تخش ملاما

وهنا يأتي جواب الطفل غيث بصفعة صاعقة للمستعمر الدخيل الذي دنَّس الأرض وقتل الأهل وصادر الثروات.

قال : غيث، وبدا الجد على وجهه يشبه ليثا أو قطامـا[1]

إن لـي ثأرا إذا أدركتـه لا أبالي بعد، إن ذقت حِمَاما[2]

لو تحصلت على مـال به أشتري عدة حرب وحسامـا

أُدْرك الثارات مـن قتلوا والدي إني أريد الانتقامـا

هو منشودي من الدنيا، التي لي ساءت، مستقرا ومقامـا[3]

يعلق على هذه الأبيات صالح مسعود بويصير بقوله "إن هذا التصوير التاريخي تعبير عن مشاعر كل من آذته الاستعمارية الإيطالية، وإذ كنا قد ذكرنا أن الجميع أوذي؛ فإن الرغبة وروح الانتقام وقوة الصمود كانت في شعبنا هذا عظيمة، فإذا كانت بديهية لدى الأطفال فما بالك بالرجال".[4]

ويأتي أحمد رفيق فيما يصوره من أن حر النفس لا تخاف الكلمة الصادقة، ومواجهة الأعداء هي من صميم الحرية والعمل لها والموت في سبيلها، فقال :

ليس في التصريح بالحق وإن جرَّ ويلاً جرأة تكسب ذامـا[5]

إن حر النفس لا يحجم عـن أن يقول الحق، للصدق التزاما

المشهد الثامن / الانتقام الاستعماري وإخماد نار الجهاد، قال رفيق :

نظر الـوالي إلى غيـث يظهر الحقد، ولا أبدى ملامـا

ورأى أتباعـه مـا غاظهم فتعاطوا نظرة، كانت كلامـا

أضمروا سوءاً، ولكـن لم يروا سببًا يوجب منه الانتقامـا

لجأوا ظلمـا، وعـدوانا، إلى أفظع الأفعـال، إذ كانوا لئاما

عـادة النذل اغتيال، ولـذا جعلوا سراً لـه السم طعامـا

ما جرى في جوفه، حتى سرى في وتين القلب كالنار اضطراما[6]

خر للموت، صريعاً، يتلـوى يطلب الماء، فيبدون ابتسامـا

لم يزل ينفث مـن فيه دمًا أسودا من كبد، ذابت رِمَامَـا[1]

---

(1) قطم : القطمُ بالتحريك شهوة اللحم وغيره ... والقطامِي : الصقر وصقر قطام وقطاميٌ، انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، ص 123.

(2) حمم : قوله تعالى "حم" ... قال بعضهم معناه قضي ما هو كائن ... وهُمَّ الشيء وأُجِمَّ أي قُدِرَ، فهو محموم والجِمامُ قضاء الموت وقدره والجِمَمُ : المنايا، انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، م1، ص 725.

(3) شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 14، 15.

(4) مهرجان رفيق الأدبي، مرجع سابق، ص 73.

(5) ذأم : ذأم الرجل يد أمه ذأماً : حقره وذَمَّهُ وعابه ... انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، م2، ص 1053.

(6) ضرم : الضرَّرم : مصدر ضرماً. وضرمت النارُ وتضرمتْ واضطرمت اشتعلت والتهبت ... انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، م3، ص 531.

يلفظ الآخـــــر من أنفاسه وينادي الانتقامـا!! الانتقامـا!!

راح مظلومـا، شهيداً، جاعلاً لفظة التوحيد، لله ختامـــــا[2]

الانتقام والحقد الاستعماري للتخلص من الشرفاء الذين يدافعون عن تراب الوطن، بوطنية صادقة، نالوا الشهادة، ولم يستسلموا، ولم يضعفوا أمام المغريات التي قدمت لهم.

الخـــــاتمة:

من خلال دراستي لموضوع القصة في شعر أحمد رفيق المهدوي – قصيدة غيث الصغير أُنموذجاً تتضح النتائج الآتية :

1_ المجتمع الليبي مجتمع قاص، له جذور تاريخية في الرواية القصصية يتأكد ذلك من خلال تاريخ الحياة الأدبية في ليبيا عبر عصورها الماضية.

2_ أحمد رفيق المهدوي له القدرة في البناء القصصي الشعري ليخلد مآثر الأجداد ونضالهم التأريخي ليروي الأمجاد الجهادية للأجيال الحالية واللاحقة حفاظاً على مجدهم وحضارتهم ليسيروا على منهجهم ويتربوا عليه.

3_ اختيار الشاعر لشخصية غيث ليوضح معناة الإنسان وجهوده في التعبير عن ذاته ومجتمعه، وهي شخصية عربية واقعية تصور جهاد الإنسان من أجل الحرية وتحرير وطنه من الاستعمار وأعوانه.

4_ استطاع أحمد رفيق المهدوي الارتقاء بمستوى الرمز من خلال توظيفه لشخصية الطفل غيث، بوصفه أداة شعرية تعبر عن صراع الإنسان ضد الظلم والقهر والحرمان واستحضر ذلك برموز مملوءة بدلالات العزة والكرامة من أجل إيقاظ الروح الوطنية في نفوس أبناء وطنه الصغير وأمته العربية كافة.

5_ اعتمد في حواره على ضمير الغائب، باستثناء المقاطع الحوارية حيث يأتي بها بصيغة المتكلم، ثم يرجع بعد ذلك ليواصل السرد بالضمير الغائب، وهذا ما يتطلبه موقف القصة الشعرية.

6_ القصيدة في مجملها أُنموذج من شعر المقاومة الوطنية ضد المستعمر الدخيل الذي دنَّس الأرض وسلب الحريات.

7_ اعتمد أحمد رفيق المهدوي في سرده للقصة على التتابع المنطقي باستثناء الاشتياق الذي كان مرة واحدة في الأسطر الأولى من القصيدة، والاسترجاع كان مرة واحدة حيث سرد في بعض الأبيات بشيء من الاختصار ما حدث لعائلة غيث الصغير من قتل وتشريد.

8_ مما يلاحظ على نهاية القصة الشعرية هو تضحية غيث بنفسه لعدم الاستسلام، وهو ما يعبر عن وطنية شعبه وعدم رضوخه للمستعمر مهما كانت المغريات والتضحيات الجسام.

---

(1) رمم : الرمُّ إصلاح الشيء الذي فسد بعضه ... والرميمُ مثل الرِّمة، قال تعالى "قال من يُحْيي العظام وهي رَميمٌ" والرميمُ : الخلق البالي عن كل شيء، انظر لسان العرب لابن منظور، مصدر سابق، م2، ص 1229.

(2) ديوان شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 15، 16.

مصادر البحث ومراجعه

1_ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

2_ أحمد رفيق المهدوي، ديوان شاعر الوطن الكبير، الفترة الثالثة، من سنة 1925 إلى 1946م، ط1، المطبعة الأهلية، بنغازي، ليبيا، 1926.

3_ أحمد عمران بن سليم، المقالة الأدبية في الصحافة الليبية، مجلس الثقافة العام – ليبيا، د.ط، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2008.

4_ أحمد محمد الجرم، اتجاهات نقد الشعر الليبي الحديث، ط1، منشورات جامعة 7 أكتوبر، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، 2010.

5_ بشير الهاشمي، خلفيَّات التكوين القصصي في ليبيا – دراسة ونصوص، ط1، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، 1984.

6_ جبور عبدالنور، المعجم الأدبي، ط1، دار العلم للملايين، لبنان، 1979.

7_ خليفة محمد التليسي، رفيق شاعر الوطن، ط2، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1971.

8_ دليل المؤلفين العرب الليبية – حصر للمؤلفين القدامى والمعاصرين حتى سنة 1976م، دار الكتب، طرابلس، 1977.

9_ ساجي يوسف أبوزيد، تذوق النص الأدبي، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012.

10_ سعيد بنكراد، شخصيات النص السردي – البناء الثقافي، د.ط، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المغرب، 1994.

11_ سمية البشير ضو، عناصر السرد في قصة غيث الصغير، المؤتمر العلمي الأول بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الزاوية، 2018.

12_ الطاهر محمد بن طاهر، الرمز في الشعر العربي، ط2، منشورات جامعة 7 أكتوبر، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2007.

13_ عبدالكريم خضير عليوي السعيدي، السرد في شعر أحمد رفيق المهدوي، مجلة كلية التربية الأساسية – واسط، جامعة سومر، العدد الخامس عشر.

14_ عبد ربه الغنَّاى، رفيق في الميزان، ط1، منشورات مكتبة الأندلس، البركة، بنغازي، ليبيا، 1967.

15_ لسان العرب المحيط لابن منظور، المجلد الأول، دار الجبل، بيروت، لبنان، 1988.

16_ محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، الجزء الأول، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999.

17_ محمد دغيم، مهرجان رفيق الأدبي، ط1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1993.

18_ محمد محيي الدين عبدالحميد، ابن رشيد القيرواني في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الجزء الأول، د.ط، دار الجبل، بيروت، لبنان، د.ت.

19_ نبيلة إبراهيم، فن القص في النظرية والتطبيق، د.ط، دار قباء للطباعة، القاهرة، مصر، د.ت.

20_ ياسين الأيوبي، مذاهب الأدب ومعالم وانعكاسات الرمزية، الجزء الثاني، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1982.